

## الطفولة

للامام رشاد محمد محبوب

ليسانس ماجستير في الفلسفة والاجتماع

الطفولة دعامة الحياة، والمجهر الأول في أسامها، فاذا شأننا أن نعرف مستقبل أمة فلنبحث عنه في أطفالها، في صحة أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم وعاداتهم، فهم نتاج الماضي وثمره الجهاد الشاق، وعنوان الحاضر، ومرآة المستقبل ورجال الغد. فعضمة الأمة وسعادة المجتمع معقودتان بنواصيهم متى نشئوا التنشئة الصالحة، وربوا التربية الفاضلة، وإلا كانوا شرا مستطيرا على أنفسهم وأمتهم، وقديما قالوا "إنك لا تجني من الشوك العنب".

ولقد دلت التجارب على أن الطور الأول من أطوار الفرد، الذي ينتهي بالسنة الخامسة أو السادسة، هو أهم الأطوار وأخطرها في تربية الطفل فالعادات التي تتكون في هذه السن هي الأساس الذي يبنى عليه المستقبل، ولقد قالوا "من شب على شيء شاب عليه". وهذا الطور الجليل الشأن تقع تبعته الأولى على عاتق الأم، ولهذا يجب أن نكبر من شأنها، وأن نذكر أن الأم هي المربية الأولى لأطفالنا، فهي تغذي طفلها من دمها أشهراً، وتسقيه لبنها أشهراً، وتربيه في حجرها سنين. وما يكتسبه الطفل من أمه بالإعداد الطبيعي والتربية الأدبية والتعليم العقلي قد لا تقوى عليه المؤثرات اللاحقة، ولا تستطيع أن تمحو آثاره مهما قويت.

فاذا كانت الأم جاهلة لا تعرف من قوانين الصحة إلا الأكل، ومن آداب التمدن إلا البهجة والتبرج، ومن العلوم غير الخرافات والأوهام التي تفسد العقول وتميت التفكير الصحيح، فإنها تحاول أن تدفع الضرر المودوم عن طفلها بالضرر المحقق، وأن تدأويه بما فيه الداء، فتدفع عنه "العين" بالرقيّة "والوصفة" القذرة، وحين تنهيه عن العمل القبيح ترهبه "بالقول" و"البيع" ونحو ذلك مما يربى فيه ملكة الخوف والفرع.

فاذا تكون حالة هذا الطفل المسكين صحياً وأديباً وعقلياً؟ لاشك أنها تكون شرا وبيلا على حاضره ومستقبله.

ولتقابل بين هذا الطفل المسكين وبين آخر أسعدته العناية الالهية بأمر هي على تقيض ما تقدم ، عاقلة ، مهذبة ، متعلمة ، متحابة بالآداب الصحيحة ، تعلم أن السعادة الحقيقية إنما تكون في حياة الهدوء والبساطة ، وأن الجمال الحق إنما هو في حسن التربية ونظافة البيت ، ولا تخضع لسلطان الخرافات ولا تفرس الخوف والفرح في نفس طفلها . بل تربيته تربية تجعل عقله غير مقيد بقيود الجهل والوهم ، وتخدم صحته بالسهر على نظافة جسده وملابسه والاعتناء بطعامه وشرابه ، وبقاء الهواء في غرفته ، وتحتاشي التأنق والمبالغة في طلب الرفاهية الى حد يتنافى مع الاقتصاد ، وتروضه على الخشونة المقيوية للأجسام والأخلاق ، مثل هذا الطفل يشب صحيح الجسم ، خصيب الذهن ، مستعدا لاحتمال متاعب الحياة ومشاق الكفاح فيها ، وما الحياة إلا عمل وكفاح .

إن شئنا للإنسانية رقا وفلاحا ، وجب أن نعنى بحالة أطفالنا الفكرية والمصنوية كما نعنى بحالتهم المادية والصحية . وهذه غاية لا تدرك إلا بدعاية مستمرة وعمل حثيث .

وأهم شيء يجب أن نوجه اليه نظر الأم هو أن تحدد للطفل وقتا معينا حين تريد أن تطبعه على عادة من العادات . فاذا أرادت مثلا أن تعلمه شيئا من آداب الأكل ، كالأيتكلم وفمه مملوء بالطعام ، أو ألا يكثر من القيام والقعود أو اللعب وقت الأكل ، فعليا أن تختار واحدة من هذه العادات ، وتحدد لتعليمها مدة معينة تراقب فيها طفلها أول الأمر مراقبة يقظة ، بأن تلقته الى أنه خالف ما لفته إياه ، وتصحح تصرفه عمليا ، وتفضل هذا أثناء الأكل ثم تذكره به خلال يومه ، فاذا ما أمضى مدة تحت هذه المراقبة فإنه سرعان ما يتعود هذا النظام ويجرى عليه دائما ، وعلى الأم أن تسير على هذه الطريقة في غير ذلك مما تريد تلقيه إياه .

ولا تنسى أيتها الأم أن حاولتلك تعليم الطفل عدة أشياء في وقت واحد ، أو طليك منه أن يقوم بما ليس في استطاعته لا ينتج إلا الفشل المحقق ، فعلميه القليل ثم القليل لتستطيعي أن تلاحظيه ، ويستطيع هو أن يعمل ويعتاده .

أما العادات التي يجب أن يألفها الطفل من البداية فهي النظام والدقة في مواعيد نومه واستيقاظه وأكله واستحمامه ورياضته ، وألا تسمح للزائرين والزائرات من الأقرباء والأصدقاء بتدليله ووضعهم على حجر أحدهم أو إحداهن ، كما هي العادة الشائعة عندنا ، وتنقيه من ذراعي هذا الى ذراعي هذه ، وأن تعود الاستقلال والاتكال على نفسه بقدر الإمكان . ويجب أن تتركه يلعب ويجرى كما يشاء مع ملاحظتها له عن بعد حتى لا يتجاوز حد المعقول ولا يتعرض للخطر ، فبذلك ينشأ على النشاط والرجولة وتتكون لديه ملكة التفكير .

وإذا ما بلغ الطفل الثالثة من عمره عؤديه أن يفسل يديه قبل الأكل وبعده ، وأعطيه مندبلا ليستعمله ، واركبه يا كل ويلبس بنفسه ، وعليه أنت يقول "مشكر" و"من فضلك" وما إلى هذين من التعميرات التي تصقل ذوقه وأدبه . عؤديه على أن يكون ذا عزيمة قوية يقول الحق ويفعل الخير بلا تردد ويؤدي الواجب بلا توان . وخير وسيلة إلى ذلك أن تكوني أنت مثلا صالحا له وقدوة حسنة . علميه أن يتبع تعليماتك ولا تكافئيه على شيء من الواجب عليه أن يؤديه ، ولا يكن بكاؤه سببا لتحقيق كل رغباته .

ولا تجعله مغرورا بلباسه أو بشخصه أو بما يملكه من اللعب ، ولا تشجعه على أن يقول "ده بتاعى" أى هذا ملكى ، فإن هذا مما يطبعه على الأنانية وحب الذات .

اجعلى طفلك يتحمل الألم بصبر وشجاعة ، واستعمل معه الحنان فى مكان الحنان ، والشدة فى مكان الشدة ، فلا تضربى الكرسى الذى كان سببا فى وقوعه مثلا ، ولا تقبلى موضع الألم من جسمه ، ولا تشجعه على أن يضرب غيره بأن تبدى له استحسانك إذا ما انتصر على طفل آخر ، فإن ذلك يعود الشر وحب الأذى .

واجتهدى أيتها الأم النماضلة ألا تمتلى أذنا طفلك بالفاظ سرذولة أو قبيحة ، ورددى له فى ساعات فراغه وعند ما تداعينه ألفاظ الشرف والسؤدد ، ولقنيه آيات المجد والكرم .

نريد من الأم الجديرة بهذا الاسم الكبير أن تكون معرضة ومربية ، ترى ابنها وقواعد الطب أمامها ، وتسهر عليه ومصباح العلم يضىء بين يديها ، وإذا ما لاحظت على طفلها ظاهرة لم تفهمها أو ألم لم تدرك سببه سارعت إلى الاختصاصيين من الاجتماعيين والأطباء ، فإن معاملة شؤون الطفولة من أدق المسائل وأعدها وأجدرها بالاستشارة والتدبر .

وهذه هى الحكومة تعين الأم على تأدية رسالتها ، فهى تنفق سنويا أكثر من مائة ألف جنيه على مرا كز رعاية الطفل ، ووزارة الصحة تعنى بالأطفال والأمهات طيلة أشهر الحمل والرضاعة وقد جعلت إلى جانب مرا كز رعاية الطفل مدارس للولادات والزائرات الصحيات ، وجهودها مستمرة فى سبيل حماية الطفولة .

وقريبا سنرى المراكز الاجتماعية الثروية التى قررت وزارة الشؤون الاجتماعية إنشائها فى أول السنة المالية الجديدة ، وهذه ستقوم على أحسن وجه برعاية الأمومة والطفولة فى القرى .

وهنا يجب أن نلفت الأنظار إلى ناحية لنا أهميتها الكبرى في نشأة الطفل وتكوينه ، وهي تأثير الأمراض الوراثية في الفرد جنينا ووليدا وشابا وشيخا ، وأن الطفل قد يرث عن أبويه أمراضا ربما كانت أشد فتكا من الأمراض المكتسبة .

وإذا كان يخيل لنا أحيانا أن بعض شباننا وشيوخنا هم مجاميع أوبئة متحركة ، فإن هذه الأوبئة في الغالب هي تراث الطفولة ، ولذا أجمع الأطباء على ضرورة الحيلولة بين المعتودين وذوى المعاهات الدائمة وبين الزواج ، لكيلا ينكب المجتمع بمزيد من المرضى والمصابين ، فلا يجوز لمن كان مصابا بمرض سرى أن يتزوج ما دام المرض متغلغلا فيه . ذلك لأن هذه الأمراض تهدم سمادة الحياة الزوجية ، وتضعف الحيوية ، وتحل روابط السرور والسعادة في الأسر ، وهي سبب كثير من العمليات الجراحية التي تعمل للرجال والنساء ، ومضاعفاتها وعواقبها تجلب صنوفا من العذاب تفقد الزواج كثيرا من جماله ولذته ومرحه .

وتلى الأمراض السرية الأمراض الأخرى المزمنة ، فإن هذه يجب أن يحسب لها أعظم حساب قبل عقد القران ، فلا يجوز أدبيا ولا اجتماعيا لمن كان مصابا بمرض عقلي أو بدني عضال كالسل أو مرض القلب أن ينتج للوطن أطفالا مشوهين أو بلهاء أو ضعفاء .

من الظلم أن نورث أبناءنا أمراضا لا ذنب لهم فيها ، وأن نبعث بهم إلى وجود كله سقم وعلل وشتاء . وإذا كانت قوانين الوراثة غير مطردة فاحتمال الخطر في موقف كهذا يستلزم الحليظة والحذر ، ومن حق المجتمع أن يشرف على أعضائه ويستأصل العناصر الفاسدة ، ولا يسمح لها بالنمو والانتشار ، وكل رجل كملت نفسه وسما ضميره وبمد نظره ، لا يمكن أن يجنى على فلذة كبده ، وينقل مرضه إلى أحب الناس إليه .

وما دام كان للطفولة هذا الشأن العظيم في بناء الوطن وتكوين لأمة فعلينا جميعا أن نحسن تأسيس البناء ونعير الطفولة أوفر قسط من عنايتنا . وإن شعبا يهمل أمر أطفاله بلخدير ألا يظفر برجال أصحاء أقوياء .

رشاد محبوب